وأنا أُفضِّلُ الأباتشي..!

كنتُ في سنتي الجامعيّةِ الأُولى إعدادي هندسة، وكان من ضمن المساقات الإلزامية على جميع كليّات الجامعة الإسلامية التي تخرّجتُ فيها مساق : الإسعافات الأوليّة.

المساق كان مثرياً بحق، يُؤخذ على محاملِ الجد ولابد، ككلِّ مساقاتِ الجامعةِ الموافقة لنهجها المعروف.

وكان أستاذا المساق طبيبين أشهرين، وعلمين ألمعيين، وقد شاءَ القدير أن أُسجَّل مساقي ذاك في شعبة أحدهما، وهو د. محمود_الزّهار.

الرجلُ كان – على شهرته السياسيّة – من رجالاتِ الله في أرضه، أحسبه كذلك ولا أزكّيه على الله.

كان – *حفظه الله*– غزيرَ علمٍ، خفيفَ ظلٍّ، ألمعياً أبينا ، ينقلُ خطاهُ متثاقلاً وقد أُثقلت كواهله بسني اعتقال وآثار تعذيبٍ طال من يهودٍ و... ذوي قربى.

أذكرُ مثلاً أنّه سأل في احدى محاضراته سؤالاً تخصصيّاً، فأجبتُ مستخدمةً مصطلحاً طبيّاً حكراً على أهل الاختصاص، فنظر إليّ متبسّماً وعيناه تضحكان وقال: أنت متأكدة أنك تدرسين الهندسة يا ابنتي!!.

أمّا طبيبنا الآخر، والذي كان يدرِّسُ نفسَ المساق لشعبةٍ أُخرى، فقد كان اسمُه وحدُه كفيلاً باثارة غيظي وحنقي على إدارة الجامعة أن كيف جمعت بين هذين هذين –وهما من هما – لتدريس المساق ذاته، وعمدت إلى توزيعهما على شعبتين اثنتين ، فلو استقدمت أحدهما دون الآخر لكان أهون وأخفّ وطءا.

أما والحالُ هكذا، فقد آليتُ على نفسي أن أجمعَ بين محاضرتي رفيقي الإبعاد – إلى مرج الزهور– والجهاد.. وإن شاقني رهقاً.

كنتُ ما أن ينطقُ د. محمود بآخر حرف ململماً أوراقه مغادرا، حتى أنطلقَ كما البرق من مبنى القدس، إلى مبنى طيبة –الذي كان في الطرف الآخر البعيد – حيثُ محاضرتُه وقد مضى عليها العشر دقائق.

أدخل القاعةَ الفسيحة وقد ران على أهلها صمتُ الإجلال، وورعُ التزوّد، فألزمُ أوّلَ مقعدٍ أصادفه وعيناي أسيرتا المنصّة، حيثُ يتهادى هو أسدا، صوته يملأُ جنبات القاعة بحروفٍ ناصعة، ومخارج أثيلة، عينان برّاقتان تبسمان حنوًّا ظاهرًا وخطوًا واثقًا، وهيبةً ليست كالهيبة.

تشخصُ إليه الأفئدةُ قبل العيون: يبسم فنبسم، يقطّبُ فنفعل، يضحك مازحاً، فتضحك أرواحنا معه.

موسوعيّته، خفّةُ ظلّه، يقينُه،ثباته، هيبته، حنوُّ الأب، وعينُ القائد الكالئة، وروح الأمير الملهم.

تخيل أن يجتمعَ كلُّ ألقٍ في شخصِ رجلٍ واحد، وأنّ هذا الشخص بالذات تناظره عيناك فما تدري أزمن الخلافة الراشدة عاد، أم هي نفحاتُ عصرِ عزٍّ وأمجاد!

أذكرُ مرةً كان يحدّثنا فيها عن فدائيي الانتفاضة الأولى، وعن عمليات الطعن والذبح التي كانت أقرب للاعتيادية، وعن طريقة الذّبح السليمة والمؤدية الى الموت الفوري فلا يفلت منها اليهودي، ولا تجدي معها كل طرائق الإسعافات التي برع يهود فيها، كذاك أماكن الطعنات النافذة المفضية الى الموت الأكيد..!

نعم، ومن غيرُه ، أسدنا المترعُ ثباتاً وثقةً ويقيناً، المستبسلُ أبدا بخياره وخيارنا، من اختارَ الأباتشي عزّا على سكتةٍ قلبية أو موتة سرير. نذكره في زمنٍ عزت فيه الرجال، والتاعت الأرواح بحثاً عن ترياقٍ يسري فيها فيستفزها من أرضها التي إليها ركنت، مع كل الخبث الذي يحوطها –يكاد يزهقها– وأشباه الرجال اللذين ساموا أرواحنا رهقا، فأطالوا علينا أمد النصر الذي نوقن به، علَّنا نعي أن كان فينا – وفي يومٍ قريب– من قايض سقط المتاع بوعد الآخرة، ما تنكّف لأمته ولا آثر عليها، وباعها رخيصةً يوم انبرى سقط الخلق يجادلون في مسلّمات ويشكّكون في بديهيات، سقطوا وهم على قيد حياة.. وأفضى هو إلى ما قدّم...!

عبد العزيز الرنتيسي .. إلى جنان الخلد.